

الباب الثالث

هنيبال يحارب رومة

٢٦٤ - ٢٠٢ ق. م

الفصل الأول

قرطاجنة

كشفت التجار الفينيقيون - وهم قوم ديدنهم البحث، والتنقيب - عن ثروة أسبانيا المعدنية قبل ألف ومائة عام من تلك الأيام. ولم يمض على هذا الكشف إلا قليل من الوقت حتى كان أسطول من السفن التجارية يبحر عباب البحر الأبيض المتوسط بين صيدا وصور وبيلاوس من ناحية وطارطسوس Tartessus عند مصب نهر الوادي الكبير من ناحية أخرى، وإذ كانت هذه الأسفار مما يتعذر القيام بها من غير أن تكون فيها محاط كثيرة في الطريق، وإذ كانت سواحل البحر الأبيض الجنوبية أقصر الطرق وأمنها. فقد أنشأ الفينيقيون مراكز وسطى ومحاط تجارية على ساحل إفريقية الشمالي عند لبتس مجنا Leptes Magna (ليدة الحالية) وهدرومتيم Hadrumentum (سوسة) وبوتيك (بوتيك) وهيو دير هيتس Hppo Diarrhytus وهيو رجيوس Hppo Regius (بونة)، بل إنهم عبروا مضيق جبل طارق وأقاموا مركزاً لهم في لكسوس Lixus (جنوب طنجة) وتزوج التجار الساميون الذين أقاموا في هذه المراكز من الأهالي وأسكتوا غيرهم بالمال، وفي عام ٨١٣ ق. م أقامت جماعة جديدة من المستعمرين -

قد يكونون من فينيقية وقد يكونون من يتيكا Utica التي أخذت وقتئذ في الاتساع - أقامت هذه الجماعة بيوتها لها على نتوء في البحر على بعد عشرة أميال من مدينة تونس الحالية . وكان الدفاع عن شبه الجزيرة الفينيقية أمراً سهلاً ، وكانت مياه نهر بجر داس (مجردة) تروى أرضها وتفيض عليها الخصب والتماء ، ولذلك كانت تعود إلى الانتعاش بسرعة بعد ما كان يحل بها من التخريب المتكرر . وتعزو الروايات القديمة إنشاء هذه المدينة إلى إليسا Elissa أو ديدو Dido ابنة ملك صور ، فتقول إن أخاها قتل زوجها فأبحرت مع طائفة أخرى من المغامرين إلى إفريقية . وسمى المكان الذي استقرت فيه كارت هدشت - أي المدينة الجديدة - تمييزاً لها عن يتيكا ، وحول اليونان هذا الاسم إلى كارشدون وبدله الرومان إلى كرتاجو . وأطلق اللاتين اسم إفريقية على الإقليم المحيط بقرطاجنة ويتيكا وسموا أهلها الساميين ، كما كان يسميهم اليونان ، الهوني أو الثوني ، أي الفينيقيين . وهاجر كثيرون من سراة أهل صور إلى إفريقية عقب حصار سلانصر ، ونبوخذ نصر والإسكندر ، واستقر معظمهم في قرطاجنة ، فأصبحت بسبب هذه الهجرة مركزاً جديداً للتجارة الفينيقية ، وأخذت قوة قرطاجنة وعظمتها في الازدياد كلما أخذت صور وصيدا في الاضمحلال .

ولما ازدادت المدينة . قوة دفعت أهل إفريقية الأولين إلى الداخل شيئاً فشيئاً ، وامتنعت عن أداء الجزية لهم ، بل أرغمتهم على أن يؤدوها هم واستخدمتهم أرقاء وأقناناً في بيوتها ومزارعها . وكانت نتيجة هذا أن نشأت لأهل قرطاجنة ضياع واسعة كان يعمل في بعضها عشرون ألف رجل (١) ، وأضحت الزراعة عند الفينيقيين العمليين علماً وصناعة ، ونلخص قواعد ما جو الكاتب القرطاجني في كتاب ذائع الصيت . وشق الأهلون القنوات فأخصبت الأرض ونشأت فيها حدائق ذات بهجة ، وحقول من القمح والكروم ، وبساتين تنتج الزيتون والرمان ، الكثرى والكرز والتين (٢) ، وربوا الخيل والأنعام والضأن والمعز .

واستخدموا الحمير والبغال في حمل الأثقال ، وأنسوا كثيراً من الحيوانات ومنها الفيل . أما الصناعات في المدن فلم تزدهر ازدهار الزراعة اللهم إلا صناعة المعادن ؛ ذلك أن القرطاجنيين ، كأباثهم الأسيويين ، كانوا يفضلون أن يتجروا فيما يصنعه غيرهم ، فكانوا يجوبون الأقطار ، يقودون بغالهم شرقاً وغرباً ، ويضربون في قفار الصحراء طلباً للفيلة والعاج والذهب والعبيد . وكانت سفنهم الضخمة تحمل المتاجر من مئات المواقيت بين آسية وبريطانيا وإليهما ، لأنهم لم يكونوا يرضون أن يعودوا كما عاد معظم الملاحين عند أعمدة هرقل **Pillars of Hercules** (مضيق جبل طارق) ؛ وأكبر الظن أنهم هم الذين أنفقوا على رحلة **Hanno** البحرية التي ارتادت أفين وستائة ميل من ساحل إفريقية الغربي ، ورحلة **Himilco** التي ارتادت سواحل أوربا الشمالية . ويلوح أنهم كانوا أول من أصدر عملة من نوع العملة الورقية - في صورة رقائق من الجلد مطبوع عليها ما يدل على قيمتها ويتعامل بها في جميع أنحاء الدولة القرطاجنية ، وإن لم يكن من المستطاع تمييز عملتهم المعدنية عن عملة غيرهم من الأمم .

والراجح أن التجار الأثرياء لا الأشراف أصحاب الضياع هم الذين قدموا الأموال اللازمة لتجيش الجيوش وإنشاء الأساطيل التي حولت قرطاجنة من مركز التجارة إلى إمبراطورية استولت على ساحل البحر الأبيض الجنوبي من سيرنيكا **Cyrenaica** إلى جبل طارق وإلى ما بعد جبل طارق عدا يتكا . استولى القرطاجنيون كذلك على طارطسوس وجادير (قاذز) وغيرهما من المدن الأسبانية ، وأثرت قرطاجنة بما أخذته من ذهب أسبانيا وفضتها وحديدها ونحاسها . وتملكت جزائر البليار ، بل لأنها وصلت إلى جزائر ماديرة ومالطة وسردانية وقورسقة ونصف صقلية الغربي . وكانت تعامل البلاد الخاضعة لحكمها معاملة مختلفة الدرجات في قسوتها ، فكانت تفرض عليها جزية سنوية ، وتجند الأهليين في جيوشها ، وتقيد تجارتها وعلاقتها الخارجية بأشد من القيود . ولكنها في

نظير هذا كانت تحميها من أهدائها عسكرياً ، وتمنحها استقلالاً ذاتياً محلياً ، واستقراراً اقتصادياً . وفي وسعنا أن نقدر ما كان لهذه البلاد الخاضعة لقرطاجنة من ثراء إذا عرفنا أن واحدة منها هي لبتس *Leptis Minor* كانت تؤدي إلى خزانة قرطاجنة ٣٦٥ وزنة (أى ما يعادل ١٢١٤٠٠٠ ريال أمريكي من نقود هذه الأيام) .

واستغلت قرطاجنة هذه الإمبراطورية استغلالاً جعلها في القرن الثالث قبل الميلاد أكثر مدائن البحر الأبيض المتوسط ثراء ، فقد كان يدخلها كل عام من الضرائب الجمركية ومن الخراج نحو ١٢٠٠٠٠٠ تالنت أى قدر ما كان يدخل في خزائن أثينة أيام مجدها عشرين مرة ، وكان سراتها يسكنون القصور ويلبسون الملابس الغالية الثمن ويطعمون الأظعمة الشهية يأتون بها من خارج بلادهم . وازدهمت المدينة بسكانها البالغ عددهم ربع مليون نسمة واشتهرت بما أقيم فيها من الهياكل الفخمة والحمامات العامة ، ولكن أكثر ما كانت تشتهر به موانئها الآمنة وأحواضها الواسعة . وكان في مقابل كل حوض من أحواضها البالغة ٢٢٠ حوضاً عمودان أيونيان *ionic* ؛ ومن ثم أضفى الميناء الداخلى ذا شكل مستدير فخم يحيط به ٤٤٠ عموداً ، وكان يوصل هذا الميناء بالسوق العامة طريق واسع به ميدان ذو عمد ، تزينه تماثيل يونانية ، وتقوم على جانبيه الأبنية المحتوية على المصالح الحكومية ، والمكاتب التجارية ، ودور القضاء والعبادة . أما الشوارع التي تجاور هذا الطريق فكانت ضيقة كمعظم شوارع البلاد الشرقية ، وكانت مملأى بالحوانيت التي تقوم فيها الصناعات المختلفة وتعقد فيها آلاف الصفقات التجارية . وكانت بيوتها ترتفع في الجوى إلى ستة أطباق ؛ وكثيراً ما كانت الحجرة الواحدة تضم أسرة بأكملها . وكان في وسط المدينة ربوة عالية أو قلعة - كانت هي وغيرها من المعالم مما أوحى إلى الرومان بالصورة التي أقاموا عليها مدينتهم - تسمى « البورصة » *Byrsa* ، وتضم بيت المال ، ومضرب

النقود ، وكثيراً من المزارات والعمد ، وأفخم معبد في قرطاجنة كلها وهو معبد الإله العظيم إشمون Eshmun ، وكان يحيط بالمدينة من ناحيتها الأرضية غير البحرية سور من ثلاثة جدران يرتفع خمساً وأربعين قدماً في الهواء ، ومن فوقه أبراج وشرفات ، ومن داخل الأسوار فضاء يتسع لأربعة آلاف حصان وثلاثمائة فيل ، وعشرين ألف رجل (٣) . وفي خارج الأسوار كانت مزارع الأغنياء ومن بعدها حقول الفقراء .

وكان القرطاجنيون من الجنس السامي وثبتي الصلة باليهود الأقدمين في دمهم وفي ملامحهم ، وكانت تظهر في لغتهم أحياناً ألفاظ عبرية ، مثال ذلك أنهم كانوا يسمون القضاة شفيتي وتلك هي الكلمة العبرية شفيتهم . وكان الرجال يرسلون لحامهم ولكنهم كان من عاداتهم أن يحلقوا شفيتهم العليا بشفرات من البرنز . وكان معظمهم يضعون على رؤوسهم قلانس أو عمام ، ويختدون أحذية أو أخفافاً ، ويلبسون جلابيب طويلة فضفاضة ؛ ولكن الطبقات العليا من الأهلين قلدت اليونان في ملابسهم ، وصبغت أثوابها باللون الأرجواني ووشت أطرافها بالحرز الزجاجي . أما النساء فكان في الغالب متحجبات يمين حياة العزلة ؛ وكان في وسعهن أن يبلغن مناصب كهنوتية عالية ، أما فيما عدا ذلك فكان عاين أن يأسرن الرجال بجهن . وكان الأهلون جميعاً - رجالاً كانوا أو نساء - يتحلون ويتعطرون ويضعون أحياناً حلقات معدنية في أنوفهم . ولسنا نعرف إلا القليل عن أخلاقهم من غير أعدائهم ، فالكتاب اليونان والرومان يصفونهم بالإسراف في الطعام والشراب ، وبأنهم يحبون أن يجتمعوا في نوادي الطعام ، وأنهم إباحيون في علاقاتهم الجنسية فاسدون في شؤونهم السياسية ؛ وكان الرومان المعروفون بالغدر يستعملون لفظ الوفاء القرطاجني Fides Punica مرادفاً للفظ الحيانة . ويقول بوليبيوس أن « لا شيء ينتج عنه كسب يعد عاراً في قرطاجنة (٤) » ويتهم فلوطرخس ، أهل قرطاجنة بأنهم « خشنو الطباع مكتئبون ،

سلسو القيادة في أيدي حكامهم ، قساة على الشعوب الخاضعة لسلطانهم ،
إذا خافوا بلغوا منتهى الجبن ، وإذا غضبوا بلغوا منتهى الوحشية ، عنيدون
لا يرجعون عن شيء أقروه ، صارمون ، لا يستجيبون إلى دواعى اللهو
أو مباحج الحياة^(٥) . ولكن فلوطرخس رغم ما عرف به من العدل في
أحكامه كان يونانياً على الدوام ، وأما پولبيوس فكان صديقاً حميماً لسپيو
الذى حرق قرطاجنة ومحا آثارها من الوجود

ويبدو القرطاجنيون في أسوأ صورهم في دينهم ، وإن كان كل ما نعرفه
عنهم من هذه الناحية قد وصل إلينا عن طريق أعدائهم . لقد كان أسلافهم
في فينيقية يعبدون بعل ملك وعشروت بوصفهما ممثلين لعنصرى الذكر
والأنثى في الطبيعة وللشمس والقمر في السماء ؛ وعبد القرطاجنيون إلهين
ممثلين لها وهما بعل هامان وثانيث . وكانت ثانيث بصفة خاصة تثير حهم
وتقواهم ؛ فكانوا يملأون هياكلها بالهدايا ويقسمون باسمها . وبلى هذين
الإلهين في التعظيم ملكارت « مفتاح المدينة » ثم إشمون رب الثروة والصحة ،
ويأتى من بعد هذه كلها حشد كبير من الآلهة الصغرى تسمى « البعول »
أو الأرباب . بل إن ديدو نفسه كان من هذه المعبودات^(٦) . وكانوا في الأزمات
العصيبة يضحون لبعل - هامان بالأطفال الأحياء ، وكان عدد من يضحى
بهم لهذا الإله في اليوم الواحد يبلغ أحياناً ثلاثمائة طفل . وكانت طريقتهم
في هذه التضحية أن يضعوا الأطفال فوق زراعى هذا الوثن المبسوطين ،
ثم يدحرجونهم إلى النار المتقدة أسفل الذراعين ، وكان يطغى على صياحهم
أصوات الأبواق والدفوف ، ويطلب إلى أمهاتهم أن يشهدن هذا المنظر
دون توجع أو بكاء لئلا يتهمن بالكفر ويخسرن ما هو خلق بهن من رضاء
الآلهة . وتطورت الأمور بعد ذلك فكان الأغنياء يابون أن يضحوا بأطفالهم
ويبتاعون بدلا منهم أطفال الفقراء ، فلما أن حاصر أجثكليز Agathocles صاحب
سرقوسة Syracuse مدينة قرطاجنة خشيت الطبقات العليا من أهل المدينة أن
يكون احتيالها وتهربها من واجبها المقدس قد أغضب الآلهة فألقت في النار مائتين

من أبناء الأشراف (٧) . على أن من واجبنا أن نضيف إلى هذا أن تلك القصص إنما يقصها علينا ديودور وهو يوناني من أهل صقلية لا يستنكف أن يشهد ما اعتاده اليونان من قتل أطفالهم وهو هادئ مطمئن . وليس بعيد أن يكون منشأ هذه العادة القرطاجنية عادة التضحية بالأطفال أن أولئك القوم أرادوا أن يصبغوا ما يبذلون من الجهد لضبط الفسل بصبغة التقى والصلاح .

ولما أن دمر الرومان قرطاجنة أهدوا ما وجدوه فيها من المكتبات إلى أحلافهم من أهل إفريقية . ولكن هذه الكتب لم يبق منها إلا كتاب هنو الذى سجل فيه رحلته وشذرات من كتاب ماجو فى الزراعة ، ويؤكد لنا القديس أوغسطين تأكيداً يكتنفه شيء من الغموض أنه « كان فى قرطاجنة كثير من الأشياء التى نخلدت ذكراها فى عقول من خلفهم من الناس (٨) » ، وقد استعان سلت *Sallust* و *Juba* و *Juba* بما كتبه المؤرخون القرطاجنيون ، ولكننا لا نجد لدينا تاريخاً لقرطاجنة كتبه مؤرخ من أبنائها . أما عمارتها فحسبنا أن نقول عنها إن الرومان لم يتركوا فيها حجراً على حجر ، ويقص علينا بعضهم أن طراز مبانيها كان مزيجاً من الطرازين الفينيقى واليونانى ، وأن هياكلها كانت ضخمة مزخرفة ، وأن هيكل بعل - هامان وتمثاله كانا مصفحين بألواح من الذهب تقدر قيمتها بألف وزنة (تالنت) ، وأن اليونان أنفسهم مع ما عرف عنهم من زهو وكبرياء كانوا يعدون قرطاجنة من أجمل العواصم فى العالم كله . ويحتوى متحف تونس على قطع من توابيت الموتى وجدت فى مقابر بالقرب من موقع قرطاجنة ، أجملها كلها صورة جميلة واضحة المعارف ، لعلها صورة تانيت ، يونانية الطابع فى جوهرها وثمة تماثيل صغرى استخرجت من القبور القرطاجنية فى جزائر البليار ، ولكنها فجأة خالية من الدقة ، وكثيراً ما تكون بشعة لا تطيق العين رؤيتها كأنها صنعت لإرهاب الأطفال أو طرد الشياطين . أما ما بقى من الحزف فيدل على أن هذا الفن كان يقصد إلى النفع لا إلى الجمال الفنى ، ولكننا نعرف أن الصناع

القرطاجين قد أخرجوا نماذج طيبة من المنسوجات ، والحلى ، والنقش .
على العاج والأبنوس والكهرمان والزجاج .

وليس في استطاعتنا في الوقت الحاضر أن نرسم أية صورة واضحة
للحكومة القرطاجنية . وقد أثنى أرسطوطاليس على دستور قرطاجنة ووصفه
بأنه « أرقى من سائر دساتير العالم في كثير من نواحيه » ، وذلك « لأن الدولة
تعد حسنة النظام إذا كان العامة أوفياء لدستورها على الدوام ، وإذا لم
يثر فيها نزاع أثيم يستحق الذكر ، وإذا لم يستطع أحد أن ينصب نفسه
دكتاتوراً فيها (١٠) » ؛ وكان أهلها يجتمعون من آن إلى آن في جمعية وطنية
من حقها أن تقبل أو ترفض ما يعرضه عليها من الاقتراحات مجلس الشيوخ
المكون من ثلثمائة من أهل المدينة الكبار ، ولا حق لها في مناقشتها أو تعديلها .
على أن مجلس الشيوخ نفسه لم يكن يجتم عليه أن يعرض على الجمعية أى
مشروع في وسع أعضائه أن يتفقوا عليه (١١) . وكان السكان هم الذين
يختارون الشيوخ ، غير أن الرشا العلنية قد أنقصت من مزايا هذه الإجراءات
الديمقراطية ومن أخطارها ، وأحلت الجاركية المال محل أرستقراطية المولد .
وكالت الجمعية الوطنية تختارها في كل عام شفيتين *Shofetes* لرأسا الناحيتين
القضائية والإدارية في الدولة . وكان من فوق الهيئات القضائية والإدارية
جميعاً محكمة مؤلفة من ١٠٤ من القضاة يبقون في مناصبهم مدى الحياة ،
وإن كان القانون لا يجيز هذا البقاء . وإذا كان من حق هذه المحكمة أن
تشرف على جميع فروع الإدارة ، أن تستدعى كل موظف عمومي بعد انتهاء
مدة خدمته لتحاسبه على أعماله ، فقد أصبحت قبيل الحروب البونية هى
المسيطرة على جميع الإدارات الحكومية والمشرقة على جميع المواطنين .

وكان مجلس الشيوخ هو الذى يرشح القائد الأعلى للجيش ، على أن تختاره
الجمعية من بين المرشحين . وكان مركزه خيراً من مركز القنصل في رومة لأنه
كان في وسعه أن يبقى في منصبه طوال المدة التي يرغب مجلس الشيوخ أن يبقى

فيه ه لكن الرومان قد سيروا على قرطاجنة جحافل من ملاك الأراضي الوطنيين ، على حين أن الجيش القرطاجنى كان مؤلفاً من مرتزقة الجند الأجانب معظمهم من اللوبيين الذين لا يشعرون نحو قرطاجنة بأقل عاطفة وطنية ، ولا يدينون بالولاء إلا لمن يوذى إليهم أجورهم ، ولقائدهم فى بعض الأحيان . وما من شك فى أن الأسطول القرطاجنى كان فى أيامه أقوى أساطيل للعالم على الإطلاق ، فقد كانت خمسمائة سفينة ذات خمسة صفوف من المجذفين ، زاهية الألوان ، رفيعة ، سريعة ، ترد المعتدين على مستمرات قرطاجنة وأسواقها ومسالكها التجارية . وكان فتح هذا الجيش القرطاجنى لصقلية ، وإقفال هذا الأسطول حوض البحر الأبيض المتوسط الغربى فى وجه التجارة الرومانية ، منشأ الصراع المرير الذى دام نحو مائة عام والمعروف باسم الحروب البونية الثلاث .

الفصل الثاني

رجيولوس Regulus

لقد ظلت الأمتان صديقتين طالما كان لإحدهما من القوة ما تستطيع به أن تسيطر على الأخرى . وقد عقدتا في عام ٥٠٨ معاهدة اغترفتا فيها بسيادة رومة على شاطئ لانيوم وتعهد فيها الرومان ألا يسيروا سفنهم في البحر الأبيض المتوسط غربي قرطاجنة ، وألا ينزلوا في سردانية أو لوبية إلا فترات قصيرة يصلحون فيها سفنهم أو يموتونها (١٢) . ويقول أحد الجغرافيين اليونان إن القرطاجنيين اعتادوا أن يغرقوا كل بحار أجنبي يجدونه بين سردانية وجبل طارق (١٣) . وكان اليونان في مساليا *Massalia* (مرساليا) قد نشأت لهم تجارة شاطئية سلمية بين جنوبي غالة وشمالى أسبانيا الغربى ؛ وتروى الأخبار أن قرطاجنة كانت تحارب هذه التجاره حروب قرصنة ، وأن مساليا كانت حليفة وفيه لرومة (ولنا تدرى ما فى هذه الأخبار من دعاوة حربية يسمونها تاريخاً تكريماً لها وتعظماً) . أما وقد سيطرت رومة على جميع إيطاليا فإنها لم تكن تشعر بالأمن والطمأنينة إلى سلامتها ما دامت هناك قوتان معاديتان لها - اليونان والقرطاجنيون - تمتلكان صقلية ، وهى لا تكاد تبعد عن ساحل إيطاليا بميل واحد . يضاف إلى هذا أن صقلية خصبة التربة ، فى وسعها أن تمون نصف إيطاليا بالحبوب ؛ وإذا ما استولت رومة على صقلية سقطت سردانية وقورسقة فى يدها من تلقاء نفسها . فها هو ذا طريق لا بد من سلوكه وهو الطريق الطبيعى لتوسع رومة وبسطة ملكها .

وقد بقى أن توجد الحججة التى تتلذع بها رومة لإشعال نار الحرب . وقد جاءت هذه الحججة فى عام ٢٦٤ ق . م حين استولى جماعة من مرتزقة السمنيين يسمون أنفسهم الممرتيين *Mamertines* أى « رجال المربخ » على بلدة مسانا

Messana الواقعة على أقرب سواحل صقلية لإيطاليا ، وذبخوا السكان اليونان أو أخرجوهم من البلدة ، واقتسموا فيما بينهم نساء هؤلاء الضحايا وأبناءهم وأملاكهم ، وجعلوا ديدنهم الإغارة على المدن اليونانية القريبة من تلك البلدة ، فما كان من هيرو الثاني Hiero II دكتاتور سرقوسة إلا أن حاصرهم ، ولكن قوة قرطاجنية نزلت في مسانا وردت هيرو على أعقابها واستولت على المدينة . واستغاث الممرتيون برومة وطلبوا إليها أن تعينهم على من أنقلوهم من عدوهم ؛ وتردد مجلس الشيوخ في تقديم هذه المعونة لأنه يعرف ما لقرطاجنة من قوة وثروة ، ولكن الأثرياء من العامة الذين كانوا يسيطرون على الجمعية المثوية أخذوا يدعون للحرب وللإستيلاء على صقلية ؛ وقرقرار رومة أن تبعد القرطاجنيين عن هذا الثغر ذى الموقع الحربى الهام القريب كل القرب منها مهما كلفها هذا من ثمن ؛ وجهزت رومة أسطولاً وعقدت لواءه لكيوس كلوديوس Caius Claudius وسيرته لإنقاذ الممرتين ، ولكن القرطاجنيين استطاعوا في هذه الأثناء أن يقنعوا الممرتين بالعدول عن طلب مساعدة رومة ، وأرسلوا رسالة بهذا المعنى إلى كلوديوس فى ريجيوم Rhegium . غير أن كلوديوس لم يلق بالآلى هذه الرسالة ، وعبر المضيق الذى يفصل إيطاليا عن صقلية ، ودعا أمير البحر القرطاجنى إلى المفاوضات ؛ فلما جاءه قبض عليه وسجنه ، وبعث إلى الجيش القرطاجنى يقول إنه سيقتل أمير البحر إذا أبدى الجيش أية مقاومة ، ورحب الجنود المرتزقة بهذه الحجة التى تتبجح لهم فرصة تجنب القتال مع الفيالق الرومانية ، وتظهرهم فى الوقت نفسه بمظهر الشهامة ، وسقطت مسانا فى يد رومة .

وبرز فى هذه الحرب الهونية (الفينيقية) الأولى بطلان عظيمان هما رجيولوس الرومانى وهملكار القرطاجنى . ولعل فى وسعنا أن نضيف إليهما بطلاً ثالثاً ورابعاً هما مجلس شيوخ رومة والشعب الرومانى . فأما مجلس الشيوخ فلأنه ضم هيرو صاحب سرقوسة إلى جانب رومة وضمن بذلك وصول العتاد والزاد إلى الجنود

الرومان في صقلية ، هذا إلى أنه قد نظم الأمة أحسن تنظيم قائم على الحكمة والسداد ، وقوى عزمها ، وقادها إلى النصر وسط الخطوب والأهوال الجسام هذا فضل مجلس الشيوخ ، أما الرومان أنفسهم فقد أمدوا الحكومة بالمال والعتاد والأيدى العاملة ، وبالرجال الذين بنوا لرومة أسطولها الأول - وكان مؤلفاً من ٣٣٠ سفينة كلها تقريباً ذات خمسة صفوف من المجذفين ، ويبلغ طول الواحدة منها ١٥٠ قدماً ، في كل منها ٣٠٠ مجذف و ١٢٠ جندياً ، ومعظمها مجهز بخطاطيف من الحديد لم تكن معروفة من قبل ، ويجسور متحركة تمكنهم من الإمساك بسفن الأعداء والنزول إليها . وبهذه الطريقة بدل الرومان الحرب البحرية التي لم يألّفوها من قبل حرباً برية يقاتلون فيها أعداءهم يدأ بيد ، وتستطيع فيها فيالقهم أن تستفيد بكل ما تمتاز به من مهارة وحسن نظام . ويقول پولبيوس في هذا : « ويدل هذا الحادث أكثر مما يدل غيره من الحوادث على ما للرومان من جرأة وبسالة إذا ما اعزموا القيام بعمل خطير . . . ذلك أنهم لم يفكروا قط قبل هذا الحرب في إنشاء أسطول ؛ فلما أن استقر رأيهم على إنشائه بذلوا في ذلك جهد الجبابرة ، وهاجموا به من فورهم القرطاجنيين الذين ظلوا عدة أجيال سادة البحار لا ينازعهم فيها منازع - مع أن الرومان لم تكن لهم في حرب البحار خبرة ما (١٤) » . والتقى الأسطولان بالقرب من إكثوموس Ecnomus أحد الثغور الواقعة على ساحل صقلية الجنوبي ؛ وكانا يحملان من الجنود ثلثمائة ألف . ودارت بينهما أكبر معركة بحرية في التاريخ القديم (٢٥٦) . وانتصر الرومان فيها انتصاراً مؤزراً حاسماً ساروا بعده إلى إفريقية لا يلوون على شيء ، ونزلوا إلى البر دون أن يعنوا باستطلاع الأرض ، فالتقوا بقوة تفوق قوتهم كادت تفنيهم عن آخرهم ، وأسرت قنصلهم الطائش المتهور . وبعد قليل من ذلك الوقت دفعت العواصف الأسطول الروماني إلى شاطئ صخري فتحطمت منه ٢٨٤ سفينة وغرق ٨٠,٠٠٠ من رجاله . وكانت هذه أعظم كارثة بحرية عرفها الناس في التاريخ . وأظهر

الرومان بعدها ما في طبائعهم من عزيمة فبنوا في ثلاثة أشهر مائتي سفينة جديدة ذات خمسة صفوف من المجذفين ، ودربوا لها ثمانين ألف بحار .

واحتفظ القرطاجنيون برجيولوس في الأسر خمس سنين ثم سمحوا له بأن يرافق بعثة قرطاجنية إلى رومة تعرض عليها الصلح بعد أن وعدهم بأن يعود إلى الأسر إذا رفض مجلس الشيوخ الشروط التي عرضوها عليه . فلما سمع رجيولوس هذه الشروط أشار على المجلس بأن يرفضها ، ثم عاد مع البعثة إلى قرطاجنة غير عابئ بتوسل أسرته وأصدقائه . وعذبه القرطاجنيون عذابا شديداً بأن حرموا عليه النوم حتى فارق الحياة (١٥) . وأمسك أبناؤه في رومة بأسيرين من ذوى المكانة في بلادهما ووضعوهما في داخل صندوق ثبتت فيه حراب من الحديد ، وحرموا عليهما النوم حتى قضيا نحبهما (١٦) . وليس في مقدورنا أن نصدق كلتا القصتين إلا حين نذكر ما حدث من التعذيب الهمجي في هذه الأيام (*) .

(*) يريد في الحروب العالمية الثانية .

الفصل الثالث

هملكار

لقد كان في قرطاجنة عدد كبير من أهلها يحملون أسماء هملكار وهزدروبال وهنيبال ، ذلك بأن هذه الأسماء لا يخلو منها جيل من الأجيال ، وكانت من الأسماء الشائعة في أقدم أسرها . وكانت أسماء تدل على التقى والصلاح ، ومشتقة من أسماء الآلهة : فأما هملكار فعناه : « من يتمتع بحماية ملاكارت » وأما هزدروبال فعناه : « من في معونته بعل » ومعنى هنيبال « الفضل لبعل » . ولقب هملكار الذي نتحدث عنه في هذا الفصل بهملكار برقة(*) - « الصاعقة » وذلك لأنه كان من طبيعته أن يعجل بضرب عدوه ويفاجئه حيناً وجده : وكان لا يزال شاباً في مقتبل العمر حين ولته قرطاجنة في عام ٢٤٧ القيادة العليا لحيوشها ، فسار ومعه أسطول صغير نحو إيطاليا وأخذ يغير على سواحلها ويفاجئها بالنزول في أراضيها ، ويدمر المراكز الرومانية الأمامية ، ويأسر كثيراً من جنودها . ثم أنزل جنوده إلى البر في مواجهة جيش روماني كبير كان يحمي مدينة پنورمس Panormus (پلرمو Palermo الحالية) ، واستولى على ربوة تشرف على المدينة . وكانت القوة التي يقودها أصغر من أن تجازف بالاشتباك مع الرومان في واقعة كبرى ، ولكنها كانت تعود بالأسلاب كلما قادها لمهاجمتهم . وأخذ يرجو مجلس الشيوخ القرطاجني أن يبعث إليه بالأمداد والزراد ؛ ولكن المجلس لم يستجب لرجائه وقبض يده فلم يسعفه بالمال الذي كان يكتنزه ، وأمره أن يطعم جنوده ويكسوهم من مال البلاد التي حوله .

(*) وأكبر الغن أن كلمة « البرق » العربية ترجع هي وهذا اللفظ إلى

أصل واحد . (المترجم)

وكان الأسطول الروماني في هذه الأثناء قد انتصر في واقعة بحرية أخرى ، ولكنه هزم هزيمة منكرة عند درپانا Drepana (٢٤٩) ، وأضعفت هذه الحروب قوة الفريقين على السواء فاستراحا تسعة أعوام ، ولم تفعل قرطاجنة شيئاً في هذه التسع السنين لأنها كانت تعتمد على عبقرية همليكار ، وأما رومة فإن جماعة من أبنائها قدموا للدولة طائعين عمارة مؤلفة من مائتي سفينة حربية وعليها ستون ألف جندي . وأبحرت هذه العمارة القوية ، دون أن يعلم أحد بإبحارها ، وباغتت الأسطول القرطاجني عند جزائر إيجاديا Aegadian Isles بالقرب من ساحل صقلية وأحدثت به فاضطرت قرطاجنة إلى طلب الصلح (٢٤١) ، ونزلت عن أملاكها في صقلية إلى رومة ، وتعهدت أن تؤدي لها غرامة حربية مقدارها ٤٤٠ تالنتاً في كل عام مدى عشر أعوام ، وألغت كل ما كان مفروضاً على التجارة الرومانية من قيود . وكانت الحرب قد دامت عشرين عاماً أو نحوها وأشرفت رومة في خلالها على هاوية الإفلاس حتى اضطرت إلى تخفيض قيمة نقدها بنحو ٨٣ ٪ ، ولكنها برهنت على ما في أخلاق الرومان من صلابة لاتلين ، وعلى تفوق الجيش المكون من رجال أحرار على مرتزقة الجنود الذين يسعون للحصول على أعظم المغنم بأقل ما يمكن لإراقته من الدماء .

وأوشكت قرطاجنة أن تقضى عليها شراحتها وأطاعها ، ذلك أنها كانت قد قبضت يدها بعض الوقت عن جنودها المرتزقين ، فلم تؤد إليهم أجورهم ، ولم تستثن من هؤلاء من أخلصوا في خدمة همليكار . فأقبلت جموعهم على المدينة يطالبون بتلك الأجور . ولما تلاكأت الحكومة في إجابة مطلبهم وحاولت أن تفرقهم توردوا عليها جبهة . وانضمت الشعوب الخاضعة لقرطاجنة إلى هؤلاء العصاة ، وكانت قد أبهظها عبء الضرائب الفادحة الذي رزحت تحته طوال الحرب وباعت . نساء لوبيا حلين لتمد الثوار بالمال ، وحاصر قرطاجنة عشرون ألفاً من الجنود المرتزقين والثوار يقودهم ماثو Matho وهو لوبي محررو اسپنديوس

Spendius وهو عبد كپانى Campanian وكان ذلك الحصار فى وقت لا يكاد يوجد فيها جندى يحميها . وارتعدت فرائص التجار الأغنياء فرقاً ونخشوا أن يقضى عليهم الثوار ، فأرسلوا فى طلب هملكار ليؤمنهم على حياتهم . وألقى هملكار نفسه يتنازعه عطفه على جنوده المرتزقة وحبه لمدينته ، ولكنه آثر مدينته على جنده وجند جيشاً من عشرة آلاف قرطاجنى ودرهم ، وقادهم بنفسه ، ورفع الحصار عن المدينة . وارتد الجنود المرتزقون المهزومون إلى الجبال ، وقطعوا يدي چيسكو Gesco أحد القواد القرطاجنيين وقدميه ، وكسروا ساقيه ، وفعلوا ذلك الفعل نفسه بسبعائة أسير غيره ، ثم ألقوا بمن بقى منهم أحياء فى قبر واحد بلا تمييز بينهم (١٧) . واحتال هملكار على أربعين ألفاً من العصاة حتى اضطرهم إلى الالتجاء إلى مضيق ، وسد عليهم مسالكه حتى أوشكوا على الهلاك من الجوع ، فأكلوا من بقى لديهم من الأسرى ، ثم أكلوا عبيدهم ، واضطروا فى آخر الأمر أن يرسلوا أسپنديوس Spendius بطلب الصلح ، فما كان من هملكار إلا أن صلب أسپنديوس وألقى بمئات من الأسرى تحت أرجل الفيلة ، وظلت تطوهم حتى قضوا نحبهم . وحاول العصاة أن يشقوا لهم بالقوة مخرجاً من مأزقهم الذى وقعوا فيه ، ولكن جيش هملكار قطع أصلابهم ، وقبض على مائو وأرغمه على أن يعدو فى شوارع قرطاجنة وأهلها من ورائه يضربونه بالسياط ويعذبونه حتى مات (١٨) . ودامت « حرب المرتزقة » هذه أربعين شهراً (٢٤١ - ٢٣٧) ، ويقول پولبيوس إنها كانت أفظع الحروب وأشدّها وحشية ، وإن ما سفك فيها من الدماء لم يسفك مثله فى التاريخ كله (١٩) . ولما أن نهدت نار الفتنة وجدت قرطاجنة أن الرومان قد احتلوا سردانية . فلما احتجت على هذا الاعتداء أعلن الرومان الحرب عليها . واضطر القرطاجنيون فى بأسهم إلى طلب الصلح ولم ينالوه إلا بأن يؤدوا لرومة فوق ما كانوا يؤدون لها من الغرامة ١٢٠٠٠ تالنت ، وأن يتخلوا عن سردانية وقورسقة .

وفي وسعنا أن نتصور غضب هملكار من هذه المعاملة القاسية التي عوملت بها بلاده . فعرض على حكومته أن تمده بالجنود والمال ليعيد قوة قرطاجنة في أسبانيا وليستعين بها على مهاجمة إيطاليا . وعارض الملاك الأشراف في هذه الخطة لأنهم كانوا يخافون مغبة الحرب ، ولكن طبقة التجار التي حز في نفوسها ما فقدته من الأسواق والثغور الأجنبية أيدته . وتراضت الفئتان بعدئذ على أن يعطى هملكار قوة صغيرة عبر بها البحر إلى أسبانيا (٢٣٨) ، واستولى على المدن التي كان ولاؤها لقرطاجنة قد تزعزع في أثناء الحرب ؛ وقوى صفوف جيشه بأهلها ، وجهزه وأمد بالمال من غلات المناجم الأسبانية ، ومات وهو يقود هجوماً على إحدى قبائل تلك البلاد (٢٢٩) .

وترك وراءه في معسكره هزدروبال زوج ابنته وأولاده هنيبال وهزدروبال وماجو - الملقب « بابن أسده » . واختير زوج ابنته قائداً في مكانه ، وظل ثمانين سنين يحكم البلاد بحكمة وسداد كسب في أثناءها معونة الأسبان ، وأقام بجوار مناجم الفضة مدينة عظيمة يعرفها الرومان باسم قرطاجنة الجديدة (Nova Carthage) وهي مدينة قرطاجنة الباقية إلى اليوم . ولما اغتيل في عام ٢٢١ اختار الجيش لقيادته هنيبال أكبر أبناء هملكار ، وكان وقتئذ في السادسة والعشرين من عمره . وكان أبوه قد جاء به قبل أن يغادر قرطاجنة ، وهو لا يزال غلاماً في التاسعة من عمره ، إلى مذبح بعل - هامان واستحلفه أن يثأر لبلاده من رومة في يوم من الأيام . أقسم هنيبال ولم ينس قط قسمه .

الفصل الرابع

هنيبال

تري لم سكتت رومة حتى عادت قرطاجنة إلى فتح أسبانيا ؟ لقد أرغمها على هذا السكوت أن النزاع بين الطبقات كان يمزق أحشاءها ، وأنها كانت تمد سلطانها على شواطئ البحر الأدريايوى ، وكانت مشتبكة في حرب مع الغالين . ذلك أن أحد التريونين وهو كيووس فلامينيوس *Gaius Flaminius* قد سبق ابنى جراكس *Gracchii* فأقنع الجمعية في عام ٢٣٢ بالموافقة على اقتراح يقضى بتوزيع أراضي غنمتها رومة من الغالين على فقراء المواطنين ، وذلك بالرغم من معارضة مجلس الشيوخ الشديدة لهذا الاقتراح . وفي عام ٢٣٠ خطت رومة الخطوة الأولى لفتح بلاد اليونان ، وذلك بتطهير البحر الأدريايوى من القراصنة وباستيلائها على جزء من سواحل ألبانيا *Illyria* لتحمى بذلك التجارة الإيطالية من العدوان . ولما أن اطمأنت على سلامتها من ناحيتى الجنوب والشرق اعترمت أن تطرد الغالين إلى ما وراء جبال الألب ، وتجعل من إيطاليا بأكملها دولة متحدة كل الاتحاد . وأرادت أن تضمن سلامتها من ناحية الغرب فعقدت معاهدة مع هزدروبال تعهد فيها القرطاجنيون بأن يبقوا جنوب نهر الإبرة *Ebro* ، وعقدت في الوقت نفسه حلفاً مع مدينتى سمجنتم *Saguntum* وامپورياس *Ampurias* الأسبانييتين الإغريقيتين الصبغة . ولكن جيشاً غالباً مؤلفاً من خمسين ألفاً من المشاة وعشرين ألفاً من الفرسان انقض على شبه الجزيرة من الشمال . وارتاع سكان العاصمة أشد الارتياح ، ولجأ مجلس الشيوخ إلى العادة البدائية عادة التضحية البشرية ، ودفن اثنين من الغالة حين في السوق العامة مرضاة الآلهة (٢٠) . والتقت الفيالق الرومانية بالغزاة قرب تلامون *Telamon* وقتلت منهم أربعين ألفاً وأسرت عشرة

آلاف ، وزحفت نحو الشمال لتخضع جميع بلاد الغالين الواقعة في جنوب جبال الألب ، وأتمت هذا العمل في ثلاث سنين وأنشأت مستعمرات رومانية عند بلاسنتيا Placentia وكرمونا Cremona لحماية البلاد من الغالين وبذلك أصبحت إيطاليا دولة واحدة تمتد من جبال الألب في الشمال إلى صقلية في الجنوب .

ولكن هذا النصر قد جاء في غير أوانه ؛ فلو أن الغالين قد تركوا في أماكنهم بضع سنين أخرى لكان في وسعهم أن يقفوا في وجه هنيبال ؛ أما والحال كما هي فإن بلاد الغالة كلها كانت تضطرم بنار الثورة على رومة . ورأى هنيبال أن هذه هي الفرصة التي طالما تآقت نفسه إليها - فرصة اجتياز بلاد الغالين دون أن يلقي مقاومة تستحق الذكر ، وغزو إيطاليا ومعه القبائل العالية تحالفه وتشد أزره .

وكان القائد اليوناني يومئذ في الثامنة والعشرين من عمره ، وفي عنفوان شبابه ، وثيق الأركان ثبت الجنان . وكان قد جمع إلى ثقافة السادة القرطاجنيين ، وتمكنهم من لغتي فينيقية واليونان وأداهما وتاريخهما (٢١) ، جمع إلى هذه الثقافة تدريباً عسكرياً دام تسعة عشر عاماً في المعسكر الحربي ، أدب في خلالها نفسه أحسن تأديب ، فعود جسمه شظف العيش ومغالبة الصعاب ، وأخضع شهواته لعقله ، وغود لسانه السكوت ، كما عود أفكاره أن تركز فيما يهدف إليه من الأغراض . ولم يكن يضارعه أحد في الجري أو في سباق الخيل ، وكان في مقدوره أن يخرج إلى الصيد أو القتال مع أشجع الشجعان ؛ ويصفه ليني وهو من أعدائه بأنه : « كان أول من يدخل المعركة ، وآخر من يخرج من الميدان (٢٢) » . وكان محبباً إلى القواد والجنود الذين ضرستهم الحروب ، لأنهم إذا كانوا في حضرته تملكهم هيبتة وثاقب نظراته فخالوا أن هملاكار قائدهم الأكبر قد عاد إليهم في عنفوان الشباب . وأحبه المجندون الجدد لأنه لم يكن يرتدى ثياباً يميز

بها نفسه منهم ولا يستريح حتى يكفل للجيش كل حاجاته ، وكان يقاسمهم كل ما يصيبهم من شر وخير . أما الرومان فكانوا يتهمونهم بالبخل والقسوة والغدر ، لأنه لم يكن يتقيد بمبدأ من المبادئ يحول بينه وبين الاستيلاء على المؤن لخصمه ، وكان يجازى على الخيانة وعدم الولاء أشد الجزاء ، وكان ينصب لأعدائه كثيراً من الشركاء . ولكننا كثيراً ما نجد مشفقاً رحيماً ، ونراه على الدوام شهماً ذا مروءة . ويقول عنه Mommsen ذلك القول الحكيم وهو « أنه ليس فيها يروى عنه شيء لا يمكن أن تبرره ظروف وقته والقوانين الدولية التي كانت سائدة في أيامه (٢٣) » . ولم يكن في وسع الرومان أن يرضوا عنه لأنه كان يكسب الوقائع الحربية بعقله بدماء رجاله ، ذلك أن الخيل التي كان يحتال بها عليهم ، ومهارته في التجسس عليهم ومعرفة أسرارهم ، وعلمه بفنون الحرب والحركات العسكرية ، وقدرته على مباغته أعدائه ، كل هذا ظل فوق إدراكهم وتقديرهم حتى دمرت قرطاجنة .

وحدث في عام ٢١٩ ق . م أن دبر عمال رومة في سجنهم انقلاباً سياسياً أقام في المدينة حكومة وطنية معادية لقرطاجنة . ولما أساء أهل المدينة معاملة بعض القبائل الموالية لهنيبال ، أمرهم بالكف عن هذه المعاملة السيئة ، فلما رفضوا طلبه حاصر المدينة ، فاحتجت رومة على قرطاجنة وأندرتها بالحرب ، فكان رد قرطاجنة أن سجنتم تبعد عن نهر إبره Ebro مائة ميل نحو الجنوب ، وأن ليس من حق رومة أن تتدخل في هذا النزاع ، وأنها إذ وقعت معاهدة مع تلك المدينة أخلت بشروط معاهدتها مع هزدروبال . وواصل هنيبال الحصار ، وامتشقت رومة الحسام مرة أخرى ، وهي لا تدري أن هذه الحرب الطويلة الثانية ستكون أشد هولاً من جميع الحروب التي خاضت غمارها في تاريخها كله .

وقضى هنيبال في إخضاع أهل سجنتم ثمانية أشهر كاملة ، وذلك لأنه لم يكن يجرؤ على التقدم لغزو إيطاليا ويترك لرومة من ورائه ثغراً هاماً

تستطيع أن تنزل جنودها فيه . فلما تم له الاستيلاء عليها عبر نهر الإبرة في عام ٢١٨ وتحدى الأقدار كما تحداها قيصر من بعده حين تخطى الريبكون (*) Rubicon وكان تحت قيادته جيش يتألف من خمسين ألفاً من المشاة وتسعة آلاف من الفرسان ، ايس فيهم أحد من الجنود المرتزقين ، ومعظمهم من الأسبان واللوبيين . ولكن ثلاثة آلاف من جنوده الإسبان نكصوا على أعقابهم حين علموا أنه ينتوى عبور جبال الألب ؛ وسرح هو نفسه سبعة آلاف غيرهم لأنهم احتجوا على هذه المغامرة ، وقالوا إنها مستحيلة التحقيق (٢٤) . وكان اختراق جبال البرانس نفسها من أشق الأعمال ؛ ولم يكن يتوقع قط أن يلقى ما لقيه من المقاومة الشديدة من بعض قبائل الغالين أحلاف مرسلية ؛ واقتضاه الوصول إلى نهر الرون حروباً دامت ثمانية أشهر ، فلما وصله كان لا بد له من معركة عنيفة ليتمكن من اجتيازه . وما كاد يبتعد عن شاطئه حتى وصل جيش روماني عند مصبه .

واتجه هنيبال بجيشه شمالاً نحو فين Vienne ثم اتجه به شرقاً نحو جبال الألب . وكانت جموع من الكلت قد عبرت هذه السلاسل الجبلية من قبله . وكان في مقدوره هو أن يعبرها دون أن يلقى في سبيل ذلك صعاباً غير عادية لولا عداء القبائل الألبية وما عاناه من الصعاب في تسيير فيلته في الممرات الضيقة أو الشديدة الانحدار . وقضى هنيبال في تسلق الجبال تسعة أيام وصل بعدها في وائل شهر سبتمبر إلى قممها فوجدها مغطاة بالثلوج ؛ وبعدها استراح هو ورجاله ودوابه يومين شرع في النزول في ممرات أشد وعورة من التي سلكها في الصعود ، وطرق مغطاة في بعض الأحيان بجملاميد من الصخر ومرصوفة في أحيان أخرى بالجليد . وكثيراً ما كانت تزال أقدام الجنود والدواب فتتردى في هاويات سحيقة تلقى فيها حتفها . وكان هنيبال يستحث جنوده اليائسين بأن يشير إلى الحفول الناضرة والمجاري المتلاثلة التي تنتشر من بعيد في جنوب الجبال ، ويقول

(*) انظر هذا في تاريخ قيصر فيما بعد . (المترجم)

إن هذه اللجنة التي وعدهم بها سوف تكون لهم بعد قليل . وبعد أن قضوا سبعة عشر يوماً في الصعود والهبوط وصلوا إلى السهول ، وألقوا عصا التسيار ليستريحوا ، وقد خسر الجيش في هذه المجازفة الخطيرة كثيراً من الرجال والحياد حتى لم يبق من الجنود إلا ستة وعشرون ألفاً أي أقل من نصف القوة التي غادر بها قرطاجنة الجديدة منذ أربعة شهور . ولو أن هنيبال لقي من الغالين في جنوب الأرض مثل ما لقيه من مقاومة الغالين في غربها لكان الأرجح أن تنتهي حملته قبل أن يتقدم جنوباً في إيطاليا ولكن البوثي Boii وغيرهم من القبائل رحبوا به ورأوا فيه منقذاً لهم ، فتحالفوا معه وانضوا تحت لوائه ، وأما المستعمرون الرومان المحدثون الذين أسكنتهم رومة في تلك البلاد فقد فروا أمامه نحو الجنوب ، ولم يقفوا حتى عبروا نهر الپو Po . وهكذا واجه مجلس الشيوخ هذا الخطر الثاني يهدد رومة بالدمار والفناء ولما يئس على الخطر الأول إلا نحو سبع سنين ، فاستعان بموارد البلاد كلها ، وأهاب بالولايات الإيطالية أن توحد جهودها للدفاع عن بلادها . وبفضل ما لقيته من معونتها جندت رومة جيوشاً بلغت عدتها ثلثمائة ألف من المشاة ، وأربعة عشر ألفاً من الفرسان ، وستة وخمسين ألفاً وأربعمائة ألف من الجنود الاحتياطيين . والتقى أحد الجيوش الرومانية بقيادة سيبو Scipio - وهو واحد من كثير من مشهورى القواد المسلمين بهذا الاسم - على شاطئ نهر تسينو Ticino ، وهو رافد صغير من روافد نهر الپو يلتقى به عند بافيا Pavia . وهاجم فرسان هنيبال النوميديون Numidian جنود سيبو وولولهم الأدبار ، وجرح سيبو جرحاً خطيراً ، وكاد أعداؤه يجهزون عليه لولا شجاعة ولده الذي شاءت الأقدار أن يلقي هنيبال مرة أخرى هذ زاما Zama بعد ستة أشهر من ذلك الوقت . والتقى هنيبال بجيش روماني آخر عند بحيرة ترزميني Trasimene تبلغ عدته ثلاثين ألف مقاتل يقوده لربيون كيبوس . والتقى Caius Flaminius ، ويتبعه عدد من النخاسين

يحملون الأغلال ليسلكوا فيها الأسرى الذين يأملون أن يبيعوهم في الأسواق.
بيع العبيد . واستطاع هنيبال .ومعه جزء من جيشه أن يخذع جيش فلامينيوس
فيستدرجه إلى سهل تكتنفه التلال والغابات اختبأ فيها معظم جنوده ؛ فلما
ضمه هذا السهل أشار إلى طوابيره المختبئة فانقضت على الرومان من كل
الجهات وأفتتهم عن آخرهم تقريباً ؛ وقتل فلامينيوس نفسه (٢١٧) .

وبذلك سيطر هنيبال على شمال إيطاليا كله ، ولكنه كان يعرف أن
أمامه عدواً عنيداً يبلغ عدده عشرة أضعاف عدد رجاله ، وكان أملة الوحيد
في التغلب على هذا العدو هو أن يقنع بعض الولايات الإيطالية بالخروج
على رومة . وكانت وسيلته إلى هذا أن أطلق سراح كل من وقع في أسره من
أحلاف رومة ، وقال إنه لم يأت ليحارب إيطاليا بل جاء ليحررها من الاستعمار .
ثم خاض إتروريا التي كانت تغمرها المياه ، وظل أربعة أيام كاملة لا يجد
أرضاً جافة يقيم فيها معسكره ، فعبّر جبال الأبين إلى شاطئ البحر
الأدرياوى ، حيث سمح لجنوده أن يقضوا فترة طويلة يستعيدون فيها نشاطهم ،
ويداؤون فيها جراحهم ، وكان هو نفسه مصاباً برمد خطير في عينيه ،
ولكنه لم يعالجه فأنتهى بفقد إحداها . وبعد أن استراح جيشه اتجه به نحو
الجنوب بمحاذاة ساحل إيطاليا الشرقى ، وأخذ يعرض على القبائل الإيطالية
أن تنضوى تحت لوائه ، ولكن واحدة منها لم تستجب لدعوته ، بل فعلت
عكس هذا فكانت كل مدينة تغلق أبوابها دونه وتتأهب للقتال . وحينما اتجه
إلى الجنوب أخذ حلفاؤه الغاليون يتخلون عنه لأنهم لم يكن يعينهم إلا مصير
موطنهم في الشمال . وبلغ من كثرة المؤامرات التي دبرت لاغتياله أن صار
يتخفى في كل يوم بشكل جديد . وأخذ يتوسل إلى حكومته أن ترسل إليه
المدد والعتاد والازاد عن طريق أحد الشغور الواقعة على البحر الأدرياوى ،
ولكن حكومته خيبت رجاءه ، فطلب إلى هزدروبال أخيه الأصغر - وكان
قد تركه في أسبانيا - أن يعد فيها جيشاً يعبر به بلاد غالة وجبال الألب وينضم

إليه ؛ ولكن الرومان كانوا قد غزوا أسبانيا ، فلم يجرؤ هزروبال على مغادرتها ؛ ومضت عشر سنين قبل أن يخف إلى نجدته .

واستعانت رومة على هذوها الأكبر بخطته هو نفسه ، خطة المراوغة

والحيطة والإفناء البطيء . واختير كونتس فابيوس مكسموس **Quintus Fabius**

Makimus دكتاتوراً لعلاج الموقف في عام ٢١٧ ، فاتبع خطة تقضى بأن

يؤخر ما استطاع الاتحام في واقعة فاصلة مع هنيبال . ونجح في هذا نجاحاً

اشتق معه من اسمه وصف لهذا النوع من القتال . وكان فابيوس يرى أن

الغزاة سيتناقص عددهم على مر الأيام بفعل الجوع والمرض والشقاق ،

ولكن الشعب الروماني لم يطق صبراً على خطة « السكون السديدة » أكثر من

عام ؛ وتغلّبت الجمعية المثوية على مجلس الشيوخ وعلى منطلق الحوادث

والسوابق جميعها ، واختارت منوسيوس روفوس **Minucius Rufus** دكتاتوراً

مع فابيوس . وسار منوسيوس لملاقاة العدو على الرغم من نصيحة فابيوس ،

فوقع في كمين وهزم هزيمة منكرة أدرك بعدها لم قال هنيبال إنه يخشى

فابيوس الذي لم يحاربه أشد مما يخشى مرسلس **Marcellus** الذي يبغي

حربه (٢٥) . وبعد عام واحد أسقط الرومان فابيوس وعهدوا إلى لوسيوس

إيميلوس پولوس **Lucius Aemilius Paulus** ، وكبيوس ترنتيوس فارو

Caius Terentius Varro قيادة الجيوش الرومانية . وأشار پولوس

الأرستقراطي بالحيطة والتريث ، أما فارو مختار العامة فكان شديد الرغبة

في العمل العاجل ، وحدث ما يحدث عادة في مثل هذه الأحوال فتغلب

الرأى الأخير ، وأخذ فارو يبحث عن القرطاجنيين حتى وجدهم عند

كاني **Cannae** من أعمال أبوليا **Apulia** على بعد عشرة أميال أو نحوها

من شاطئ البحر الأدرياي . وكان قوام الجيش الروماني ثمانين ألف

راجل وستة آلاف فارس ؛ أما هنيبال فكان لديه تسعة عشر ألف جندي

من ضرستهم الحروب ، وستة عشر ألفاً من الغالين الذين لا يوثق بهم ،

وعشرة آلاف من الفرسان ؛ وكان قد خدع فارو حتى جعله يحاربه في سهل

متسع هو أحسن المواضع لحرب الفرسان ، وكان قد وضع الغالين في القلب لظنه أنهم سيتخلون عن مواقعهم ؛ وقد صدق ظنه فتراجعوا واقتنى الرومان أثرهم في الثغرة التي حدثت بانسحابهم ، فأمر القائد القرطاجنى الماكر مضرسة جنده بالإطباق على جناحى الجيش الرومانى ، ونخاض بنفسه غمار المعركة فى أشد أماكنها هولاً ، كما أمر فرسانه باختراق صفوف فرسان العدو ومهاجمة الفيالق الرومانية من خلفها ، وبذلك أحاط القرطاجنيون بالجيش الرومانى ، ولم يجد له فرصة للتحرك ، وكاد يفنى عن آخره ؛ فقد قتل من رجاله أربعة وأربعون ألفاً ، من بينهم پولوس Paulus وثمانون من الشيوخ الذين تطوعوا فى الجيش ، وفر عشرة آلاف إلى كنوزيوم Canusium ومن بينهم قارو وسپيو الذى لقب فيما بعد بالإفريقى الأكبر Africanus Major (٢١٦) . أما هنيبال فقد نحس من رجاله ستة آلاف ثلاثهم من الغالين . وكان نصره هذا شاهداً فذاً على براعته فى القيادة التى لم يتفوق عليه أحد فيها فى التاريخ كله . ولم يعد الرومان بعد هذا النصر يعتمدون قط على الجنود المشاة ، كما أن هذا النصر وجه الحركات العسكرية الفنية وجهة لم تتحول عنها مدى ألفى عام .

الفصل الخامس

سيو

وزعزت هذه الكارثة هيبة رومة في جنوبي إيطاليا وضعصت سلطاتها ، فانضم السمنيون والبروتيون واللوكانيون وأهل متابنتم ، وثوراي ، وكروتونا ، ولوكري ، وكپوالا^(١) إلى الغالين الجنوبيين في حلفهم مع هنيبال ، ولم يثبت على الولاء لرومة إلا أمبريا ، ولايوم ، وإروريا . وظل هرو صاحب سرقوسة وفياً حتى مماته ، ولكن خلفه جهم بانضمامه إلى قرطاجنة . وتحالف فيلب الخامس ملك مقدونية مع هنيبال لأنه كان يخشى أن بسط رومة سلطاتها على البلاد الواقعة في شرق أوربا عن طريق إيريا Illyria ، وأعلن الحرب على رومة . وأظهرت قرطاجنة نفسها شيئاً من الاهتمام بالأمر فبعثت إلى هنيبال بقليل من الزاد والعتاد ؛ وظن بعض الشبان من النبلاء الذين نجوا من كارثة كنوزيوم أن لا أمل لرومة في النجاة ، وفكروا في الهرب إلى بلاد اليونان ، ولكن سيو ظل يندد بموقفهم حتى استحووا ودبت فيهم روح الشجاعة . وقضت رومة شهراً كاملاً وهي في أشد حالات الروع ؛ ولم يكن فيها إلا حامية قليلة تدفع عنها هنيبال إذا ما هاجمها . وهرعت كرائم العقائل إلى الهياكل يبكين وينظفن بشعورهن تماثيل الآلهة ، وعاشرت بعض النساء اللائي قتل أزواجهن وأبناؤهن في الحروب الأجانب والرقيق خشية أن ينقطع نسلهن ، وظن مجلس الشيوخ أن الآلهة غضبي فأحل مرة أخرى التضحية بالآدميين مرضاة لها ، وأمر بدفن اثنين من الغالين واثنين من اليونان أحياء^(٢) .

ولكن الرومان على حد قول بوليوس إنما يُنخشون أشد الخشية في ساعة

(١) Samnites, Bruttians, Lucanians, Metapontum, Thurii, Crotone, Locri, Capua (٥)

(٢) - ٩ - ج ١ ، مجلد ٣

المحنة وشاهد ذلك أنهم وإن منوا بأشد الهزائم ، ونخسروا سمعتهم
الحربية ، استطاعوا ، بفضل ما كان لدستورهم من المزايا التي لا يشاركه
فيها دستور غيره ، وبالاستماع إلى حسن المشورة ، أن يستردوا سيادتهم على
إيطاليا وأن يصبحوا بعد قليل من السنين سادة العالم (٢٧) . وفي هذه
الساعة الرهيبة سكنت حرب الطبقات ، وتدافعت كل الطوائف للعمل على
إنقاذ الدولة . وكانت الضرائب قبل ذلك الوقت قد ارتفعت حتى ظن أنهم لن
يطبقوها ، ولكن السكان ، ومنهم الأرامل والأطفال ، تقدموا راضين
لجزائفة الدولة بما كانوا قد ادخروه لأيام الشدة . وجند كل رجل قادر
على حمل السلاح ، وحتى الأرقاء قد قبلوا في الفيالق ووعدهم أسيادهم بأن
يهبهم حريتهم إذا كتب النصر لرومة ، ولم يرض جندي واحد أن يتناول
عن عمله أجراً ، واستعدت رومة لتنازع أسد قرطاجنة الحديد كل شبر
من أرضها .

وانتظرت رومة مجيء هنيبال ، ولكن هنيبال ، لم يأت إليها فقد ظن
أن قوته المؤلفة من أربعين ألف مقاتل أقل من أن تحاصر مدينة تتجمع
للدفاع عنها جيوش من جميع الولايات التي لا تزال موالية لها ، ولا يستطيع
الاحتفاظ بها لو أنه استولى عليها . هذا إلى أن أحلافه من الإيطاليين لم
يكونوا مصدر قوة له بل كانوا مصدر ضعف ، فقد كانت رومة
وأصدقائها يعدان العدة لمهاجمة أولئك الأحلاف ، وإذا لم يخف هو
لنجدهم فسيقتضى عليهم . وقد لأمه رجاله على حذره وبطئه ، وقال له
واحد منهم والأسف يحز في نفسه : « إن الآلهة لم تمنح كل مواهبها لرجل
واحد ، إنك يا هنيبال تعرف كيف تنال النصر ، ولكنك لا تعرف كيف
تنتفع به (٢٨) » . لكن هنيبال استقر رأيه على أن ينتظر حتى تنضم إليه قرطاجنة
ومقدونية ، وسرقوسة فيؤلف منها حلفاً ثلاثياً يستعيد به صقلية وسردانية ،
وقورسقة ، وإيريا فلا يكون لرومة قوة إلا في إيطاليا . وبدأ بإطلاق
الأسرى جميعهم عدا الرومان ، وحتى هؤلاء عرضهم على رومة نظير فدية قليلة

فلما رفض مجلس الشيوخ أن يفتديهم أرسل معظمهم عبداً إلى قرطاجنة ، وأرغم الباقين على أن يسلموا رجاله بأن يصارع بعضهم بعضاً في حلبة الجلاد حتى المات كما يفعل الرومان . ثم أحاط بعبدة مدن واستولى عليها وسار بجيوشه ليقضى الشتاء في كبوا Capua .

وكانت كبوا أجمل المدن التي كان في مقدوره أن يختارها لهذه الغاية وأشدها خطر عليه . ذلك أن هذه المدينة ، وهي ثمانية المدن الإيطالية ، والتي تبعد عن نابلي نحو اثني عشر ميلاً إلى الشمال ، قد أخذت عن التسكانيين واليونان ردائل الحضارة كما أخذت عنهم فضائلها ؛ وأحس جنود هنيبال أن من حقهم أن يستمعوا في ذلك الفصل بالملاذ الجسمية بعدما قاسوا من الصعاب وما أثنوا من الجراح ؛ ولم يعودوا كما كانوا من قبل أولئك الجند الشداد الذين لا يقهرون ، والذين احتفظوا طوال ما خاضوه من الحروب بالصورة الاسبارطية التي كانت في اعتقاد قائدهم هي وحدها صورة الجندي الحق . وقادهم هنيبال في خلال الخمس السنين التالية وانتصر بهم في بعض الوقائع الصغيرة ، وفي هذه الأثناء ضرب الرومان الحصار على كبوا . وأراد هنيبال أن يرفع عنها الحصار فتقدم إلى رومة حتى لم يبق بينه وبينها إلا بضعة أميال ؛ وجند الرومان خمسا وعشرين فرقة جديدة - أي مائتي ألف رجل ، ولم تكن قوة هنيبال قد زادت على أربعين ألفاً ، فاضطر إلى الانسحاب نحو الجنوب . وسقطت كبوا في أيدي الرومان عام ٢١١ ، وقطعت رؤوس زعمائها الذين أباحوا قتل من كان من الرومان في المدينة ؛ ومن لم يقتل منهم انتحر ؛ وشتت أهلها الذين ناصروا هنيبال في جميع أنحاء إيطاليا ، وكان مرسلس Marcellus قبل عام واحد من ذلك الوقت قد استولى على سرقوسة وبعد عام منه استسلمت أرجنتم لرومة .

وأرسل إلى أسبانيا في هذه الأثناء جيش روماني بقيادة سيبو وأخيه الكبيرين ليناوشا هزدروبال ويشغلاه . فهزماه عند نهر أبره (٢١٥) ، ولكن القائدين قتلا في الميدان بعد قليل ، وكادت تضيع ثمار ماكسباه

من النصر لولا أن أرسل إلى اسبانيا سيپيو الإفريقي Scipio Africanus ،
ابن أحد القائدين وابن أخ الثاني ، ليتولى قيادة الجيوش الرومانية فيها ،
وَم يكن سيپيو هذا قد تجاوز الرابعة والعشرين من عمره في ذلك الوقت ،
ولم تكن هذه السن تجيزُ له من الوجهة القانونية أن يشغل هذا المنصب
الخطير ؛ ولكن مجلس الشيوخ كان في ذلك الوقت لا يرى ضيراً في
أن يتجاوز عن حرفية اللسنتور إذا كان في ذلك التجاوز نجاة للدولة ،
وكانت الجمعية قد رضيت مختارة أن تخضع لإرادة مجلس الشيوخ ، ولم
يكن الشعب يعجب به لبهاء طلعه وفصاحة لسانه وذكائه وشجاعته
فحسب ، بل كان يعجب به كذلك لتقواه ، وعدالته ، وبشاشته . وكان
من عاداته قبل أن يقدم على أمر خطير أن يناجى الآلهة في الهياكل المقامة
على الكبتول ، كما كان من عاداته بعد أن ينال النصر أن يكافئها بذبح
سئات من الثيران قرباناً لها . وكان يعتقد ، أو لعله كان يتظاهر بالاعتقاد ،
أنه محبوب الآلهة ؛ وكانت انتصاراته سبباً في انتشار هذه العقيدة بين
أتباعه فلأت قلوبهم ثقة به . ومالبت أن أعاد النظام إلى الجيش ، واستولى على
نوقا كرتاجور (قرطاجنة الجديدة) بعد حصار طويل ، وحرص على أن
يبعث إلى خزانة الدولة بما وقع في يديه بعد سقوطها من المعادن الثمينة
والحجارة الكريمة ، واستسلمت له بعدئذ معظم المدن الأسبانية ، ولم يحل
عام ٢٠٥ حتى كانت أسبانيا ولاية رومانية .

ولكن قوة هزدروبال الرئيسية كانت قد أفلتت من يد سيپيو واجتازت
بلاد غالة وعبرت جبال الألب إلى إيطاليا . ووقعت الرسالة التي بعث
بها القائد الشاب لهنيبال في يد الرومان وعرفت رومة بخططه الحربية ،
والتقى جيش روماني بذاته الصغيرة عند نهر متورس Metaurus (٢٠٧)
وهزمته وشتم مهارته في القيادة . ولما رأى هزدروبال أن قد حاقت به
المزيمة وأن لا أمل له في الوصول إلى أخيه ، قفز في وسط الفيالق
الرومانية حيث لقي حتفه . ويقول المؤرخون الرومان - ولعل
ما يقرؤونه من نسج الخيال - إن القائد المنتصر قطع رأس القائد الشاب ،

وبعث بها بطريق أبوليا ليقذف بها من فوق الأسوار في معسكر هنيبال ولما علم ذلك القائد بما حل بأخيه ، وكان يحبه أشد الحب ، فت في عضده ، وطفئت بمرته ، فسحب قواته ، وكانت قد قل عديدها ، إلى بروتيوم **Bruttium** . ويقول ليفي إن « الرومان لم يشتبكوا معه في حرب في ذلك العام ، وإنهم لم يجرؤوا على مناوشته ، وذلك لما عرف عن قواته من البسالة وإن كان ركنه قد تضعضع وأخذت الأقدار تعاكسه ، وبدأ نجمه في الأفول (٢٩) » . وأرسلت إليه قرطاجنة مائة سفينة محملة بالزاد والرجال ، ولكن عاصفة هوجاء ساقتها إلى سردانية فالتقت فيها بعمارة بحرية رومانية أغرقت وأسرت منها ثمانين ، وانطلقت السفن الباقية عائدة إلى بلادها .

واختير سيبو الأصغر قنصلا في عام ٢٠٥ ولما يمض على انتصاره في أسبانيا إلا وقت قصير ، فوجد جيشاً جديداً وأبحر به إلى إفريقية . وطلبت الحكومة القرطاجنية إلى هنيبال أن يعود إلى بلاده ليدافع عن المدينة التي ظلت زمناً طويلاً ترفض معاونته . ترى ماذا كان شعور هذا الجندي الأعور وقد تألب عليه أعداء لا حصر لهم فساقوه إلى ركن قصي في إيطاليا ، وشاهد بعينه ما بذله من الجهد وما عاناه من المشاق خلال خمسة عشر عاماً كاملة ينتهي إلى لا شيء ، وكل ما ظفر به من نصر حربي يقضى عليه فلا تكون له نتيجة إلا الفرار من الميدان ؟ لقد أبقى نصف جنوده أن يعودوا معه إلى قرطاجنة ، ويقول بعض من يعادونه من المؤرخين إنه أمر بقتل عشرين ألفاً منهم عقاباً لهم لأنهم خالفوا أمره ، ولأنه كان يخشى أن تضمهم رومة إلى فيالقها (٣٠) . فلما أن وطئت قدماه أرض بلاده ، بعد أن غاب عنها ستة وثلاثين عاماً بادر إلى حشد جيش جديد وسار على رأسه لملاقاة سيبو عند زاما **Zama** على بعد خمسين ميلاً جنوبي قرطاجنة (٢٠٢) . وتقابل القائدان في بداية المعركة مقابلة ودية ، فلما وجد أن لا سبيل إلى الاتفاق بينهما أصدر أمرهما ببدء القتال

وهزم هنيبال للمرة الأولى في حياته ، فقد تضعضع القرطاجنيون ، وكان معظمهم من الجند المرتزقة ، أمام مشاة الرومان وفرنسا ومسينسا Massinissa ملك نوميديا المجازفين الأبطال . وقاتل هنيبال وهو في سن الخامسة والأربعين كما كان يقاتل وهو في نضرة الشباب ، فهجم على سيبو بنفسه وجرحه ، ثم ثنى بمسينسا ، وأعاد تنظيم قواه بعد أن اختل نظامها أكثر من مرة ، وقادها في هجمات مضادة شديدة على الأعداء . فلما لم يبق له أمل في النصر أفلت من الأسر وسار على ظهر جواده إلى قرطاجنة ، وأعلن أنه لم يخسر الموقعة فحسب بل خسر الحرب كلها معها ، وأشار على مجلس الشيوخ بأن يطلب الصلح . وعامل سيبو القرطاجنيين معاملة الكرام فرضى أن تحتفظ قرطاجنة بأملاتها في إفريقية ، ولكنه طلب إليها أن تسلم لرومة جميع سفنها الحربية عدا عشر من ذات الثلاثة الصفوف من المجذفين ، وألا تشتبك في حرب خارج إفريقية أو داخلها إلا بعد موافقة رومة ، وأن تؤدى إليها غرامة حربية سنوية مقدارها مائتا تالنت أى ما يقرب من ٧٢٠,٠٠٠ ريال أمريكي مدى خمسين عاماً . وأعلن هنيبال أن هذه الشروط عادلة وأشار على مجلس الشيوخ بقبولها .

وغبرت الحرب البونوية الثانية وجه البحر الأبيض المتوسط من ناحيته الغربية ، فقد سيطرت رومة بعدها على أسبانيا كلها وما فيها من ثروة فأمدتها بما يلزمها من المال لفتح بلاد اليونان ، وأعدت إلى إيطاليا وحدثها تحت سيادة رومة لا ينازعها فيها منازع ، وفتحت جميع الطرق والأسواق للسفن والبضائع الرومانية ؛ ولكنها كانت أكثر الحروب القديمة جميعها نفقة ، فقد خربت مزارع إيطاليا الجنوبية أو ألحقت بها أشد الأضرار ، وهدمت أربعائة من مدنها ، وأهلكت ثلاثائة ألف من رجالها (٣١) ؛ ولم تفق إيطاليا الجنوبية حتى اليوم من جميع ما أصابها من هذا الدمار . يضاف إلى هذا أن هذه الحرب قد أضعفت الديمقراطية إذ ظهرت أن الجمعيات الشعبية عاجزة عن أن تحسن اختيار القواد أو إدارة دفعة الحروب ؛ وكانت سببا فيها طرأ على حياة الرومان وأخلاقهم من انقلاب ، فقد

أضرت بالزراعة وشجعت التجارة ، وانتهزت الرجال من الريف ، وعلمتهم عنف الحروب ومفاسد حياة المعسكرات ، وجاءت بمعادن أسبانيا النفيسة لتنفق على ملاذ الحياة وعلى التوسع الاستعماري وأمكنت إيطاليا من أن تعيش على ما اغتصبتته من قبح أسبانيا وصقلية وإفريقية ، وقصارى القول أن هذه الحرب كانت المحور الذى يدور حوله تاريخ رومة من جميع نواحيه .

هذه آثار الحرب فى رومة ، أما فى قرطاجنة فقد كانت بداية نهايتها . لقد كان فى وسعها ، وقد احتفظت بجزء كبير من تجارتها وإمبراطوريتها ، أن تحمل ما يواجهها من مشاكل الإنعاش ؛ ولكن حكومتها الأبركرية قد بلغت من الفساد مبلغاً جعلها تلقى على كاهل الطبقات الدنيا عبء الغرامة الحربية ، وأن تختاس جراً من هذه الغرامة . وطلبت طوائف الشعب إلى هنيبال أن يخرج من عزلته وينقذ الأمة من محنتها ، واختير فى عام ١٩٦ حاكماً عاماً لها . فلما تولى منصبه روع سراة المدينة إذ اقترح ألا يبقى قضاء المحكمة البالغ عددهم ١٠٤ فى مناصبهم أكثر من سنة واحدة ، وألا يعاد انتخابهم إلى هذه المناصب إلا بعد عام من خروجهم منها . فلما رفض مجلس الشيوخ هذا الاقتراح عرضه على الجمعية الشعبية فأجازته ، وكانت نتيجة هذا القانون وما اتبع فيه من إجراء أن أنشأ من أقصر طريق نوعاً من الديمقراطية لا يقل عن مثيله فى رومة . ثم حارب الرشوة واجتثها من أصولها ، وأنزل بالمرتشين أشد العقاب ، ورفع عن الأهلين ما فرض عليهم من الضرائب الإضافية ، ودبر موارد الدولة تدبيراً استطاعت به قرطاجنة قبل أن يحل عام ١٨٨ أن تؤدى جميع ما فرضته عليها رومة من غرامة حربية .

لكن أرباب الأموال أرادوا أن يتخلصوا منه فبعثوا فى السر إلى رومة يقولون إن هنيبال يعد العدة لاستئناف القتال . وبذل سبيو كل ما له من نفوذ ليحمى عدوه القديم ، ولكنه غلب على أمره واستجاب مجلس الشيوخ إلى رغبة أغنياء القرطاجنيين ، بأن طلب تسلّم هنيبال إلى

رومة ، ولكن الجندي القديم مر من بلاده ليلا ، واجتاز على ظهر جواده مائة وخمسين ميلا حتى وصل إلى ثبسوس Thapsus وركب منها سفينة إلى أنطاكية (١٩٥) حيث وجد أنتيوخوس الثالث Antiochus متردداً بين حرب رومة ومسالتها ، فأشار عليه بحربها وأصبح فيها من قواد الملك . فلما هزم الرومان أنتيوخوس في مجنيزيا (١٨٩) اشترطوا انعقد الصلح معه أن يسلم هنيبال ، فما كان من هذا القائد إلا أن فر أولاً إلى كريت ، ثم إلى بيثونيا Bithynia . فأخذ الرومان يطاردونهم في كل مكان يلجأ إليه حتى أحاطوه في مكانه بالهند . وآثر هنيبال الموت على الأسر ، وقال في هذا : « دعوني أخفف عن الرومان ما يشغل بهم من زمن طويل ؛ فهم يظنون أنهم لا يطيقون الصبر حتى يلاقى شيخ مثلي منيته » (٣٢) ، وتجرع السم الذي كان يحمله معه ومات في عام ١٨٤ ق . م في السابعة والستين من عمره ، وما هي إلا بضعة أشهر حتى تبعه إلى الراحة الأبدية . سيبوقاهره الذي كان شديد الإعجاب به .